مدرسة القديس يوسف السريانيَّة المارونيَّة في القاهرة

للاديب يوسف افندي المدوَّر

توطئة

لقد جاء في جزء شهر تشرين الاول من السنة الثالثة والعشرين لمجلة المشرق الغرَّاء (ص ٧٥٠ــ٧٥٥) مقالةٌ عن «الطائفة السريانيَّة المارونية في القطر المصري» وهي حلقة من سلسلة مقالات تاريخيَّة نشرها حضرة الاب اسحق ارملة واورد فيها اموراً كثيرة عن تاريخ السريان في القطر المصري. اما هذه الحلقة التي نحن في صددها فقد خصَّها حضرته بذكر السريان الموارنة، فجاء على تاريخ نزولهم في مصر وما ادَّوه للبلاد التي اضافتهم من خدم علمية وادبية ومادّية فاصبحت وطناً ثانياً لهم، ثم استطرد حضرة الناشر الى ذكر ما للموارنة من المؤسسات الخيرية والكنائس وعدَّد بعض رؤساء رسالتهم الرهبانيَّة القائمة بخدمتهم الروحية. وذكر ايضاً كنائسهم القديمة وما كان حضرتهُ ليسعى ان يصف مدرسة القديس يوسف السريانيَّة المارونيَّة التي هي حاضراً في عاصمة القطر المصري وانَّما تأخَّرت عنهُ المعلومات التي كان موعوداً بها فلم يسعهُ ذكرها. ومن ثمَّ أردنا انشاء هذه النبذة التاريخيَّة عنها فنجعلها كقلادة في طرف سلسلة مقالات الاب ارملة «السريان في القطر المصري» ومسك ختام لها:

انشاء مدرسة القديس يوسف

في اواخر سنة ١٩٠٤ وفد الى مصر من لبنان ذلك الحبر الكبير المثلث الرحمات المطران يوسف ذريان مستناباً من غبطة السيد البطريرك الجالس سعيداً مار الياس بطرس الحويك لادارة شؤون الطائفة المارونية في الروحيات والزمنيات، فاقام في

الدار التي كان سبق فابتاعها المرحوم الكونت خليل صعب اللبناني ليوقفها على طائفته المارونية مركزاً للدطرانية والنيابة البطريركية ، فاخذ المطران يسعى بترميم الطابق السفلي من تلك الدار لاجل إعدادها مدرسةً ابتدائية تضمّ اليها ابنـاء الموارنة في هذه العاصمة . وفي شهر حزيران من سنة ١٩٠٦ قد وقف الكونت صعب الـدار وما حولها من الارض فاضحت ملكاً شرعياً للطائفة ومركزاً لمطرانها ، فاحتُفل آنئذ بفتح المدرسة وتولى رئاستها الخوري بولس قرآلي الحلبي ، فأمّها في ذلـك الحين من الطلبة ما يربو عن المئة عدداً من متفرّق الطوائف السورية بين سريان موارنة وسريان كاثوليك وارمن وملكيين ، ولم يحجم اخواننا المصريون من الاقباط عن ارسال بنيهم لارتشاف افاويق العلوم من هذه المدرسة ، اذ يجنون من روضتها ثمار الفضائل والتهذيب والتعاليم المسيحيّة مع اللغتين العربية والافرنسيّة . ولما رأى ذاك الطيّب الذكر ان البناء القديم المشترى يضيق عن استيعاب دائرة النيابة البطريركيّة والمدرسة امر ببناء الجانح الجنوبي المؤلف من طابقين جُعلت العليا منها منامة للتلامذة الداخليين

والمدرسة رتاج خارجي خلاف مدخـل دار النيـابة البطريركية مبني بالحجر النحيت يعلوه الشعار البطريركي الذي يُقرأ فيه تلك الآية الذهبيّة أمـصـــل وخلصني لأجل اسمك اي لقد أُعطيَ مجدَ لبنان

اتباع المدرسة لمنهاج وزارة المعارف المصرية

ولم تطل رئاسة الاب قرآلي على المدرسة فاستقـال ، فعُيّن النـائب البطريركي المرحوم الخوري شكرالله الشدياق رئيساً لها ، فقام بما عُهد به اليه ؛ الّا انه لـدواعٍ صحيّة اضطر ان يعتزل الرئاسة ، فعهد سيادة المطران يوسف دريان بهـا الى حضرة الخوري بولس رزق مرهج (١ فنهض باعباء ادارة المدرسة بمـا عُرف بهِ من الهمّـة والنشاط وبما فُطر عليهِ من العزم وماكن الارادة ، فجدَّ وصرف كل عنايتهُ في السعي لترقية المدرسة ورفع منارها ؛ فقرر تدريس اللغة الانكليزية بطريقة اجبارية وعهـد بتلقينها الى اساتذة مشهود لهم بالمهارة في فنّ التعليم . ثم سار بالتعليم على منهاج وزارة

١) الخوري الاسقفي والوكيل البطريركي حالاً

المعارف المصرية. اما تدريس اللغتين العربيّة والافرنسيّة والرياضيات فيقوم به اساتذة افاضل من اكليروس الطائفة أتي بهم من لبنان. واذ رأى الرئيس الحالي اقبال الناشئة على المدرسة عمل على توسيع اماكنها، فبنى بعض الغرف وانشأ فيها صفوفاً متوسطة تنتهي بتأدية الامتحان في وزارة المعارف لنوال الشهادة المعروفة «بالكفاءة» كما سيجيء وصفه

وفاة منشئ المدرسة

وفي ربيع سنة ١٩٢٠ مُنيت المدرسة بفقد رئيسها الحبر الكبير المثلث الرحمات المطران يوسف دريان فكانت وفاته صدمة عنيفة لها بما شمل قلوب الاساتذة والطلبة من الاسى والحزن على خسارة من كان لهم نبراساً نيّراً، وقائداً حكيماً، وراعياً صالحاً، فوقفت لحظةً بكت فيها على فقد منشئها العزيز. على ان همة رئيسها الفضال التي لا تني ولا تعرف الكلل لم تكن تلك الصدمة لتؤثر بها كل التأثير وتوقف المدرسة عن سيرها المطّرد. بل اخذ هذا الرئيس العامل، منذ فوضت اليه الوكالة البطريركيّة وثُبّت رئيساً على المدرسة، يواصل الجدّ والعناية في رفعة شأنها ليرقيها الى مستوى المدارس الكبرى في القاهرة

اقسام المدرسة

تشتمل مدرسة القديس يوسف على ثلاثة اقسام: «روضة الاطفال» وهي ما يعبَّر عنه في مصر بالقسم التحضيري، ومدّتها سنتان يكون الصبي في نهايتها عارفاً مبادئ التعليم المسيحي والصلوات الواجبة تلاوتها يومياً ومُلمّاً بالقراءة البسيطة وقادراً على الكتابة وعارفاً بعض قواعد حسابيّة ابتدائيّة. ويحتوي هذا القسم في هذه السنة نحو ثمانين صغيراً

«والقسم الابتدائي» ومدته اربع سنوات في نهايتها يؤدي التلامذة الامتحان في وزارة المعارف فينالون الشهادة الابتدائية المسماة «بالكفاءة» التي تؤهلهم الى الحصول على مراكز في المحلّات الماليّة او في دوائر الحكومة بوظائف متوسطة. ويضمّ هذا القسم ما يقرب من ٢٥٠ تلميذاً

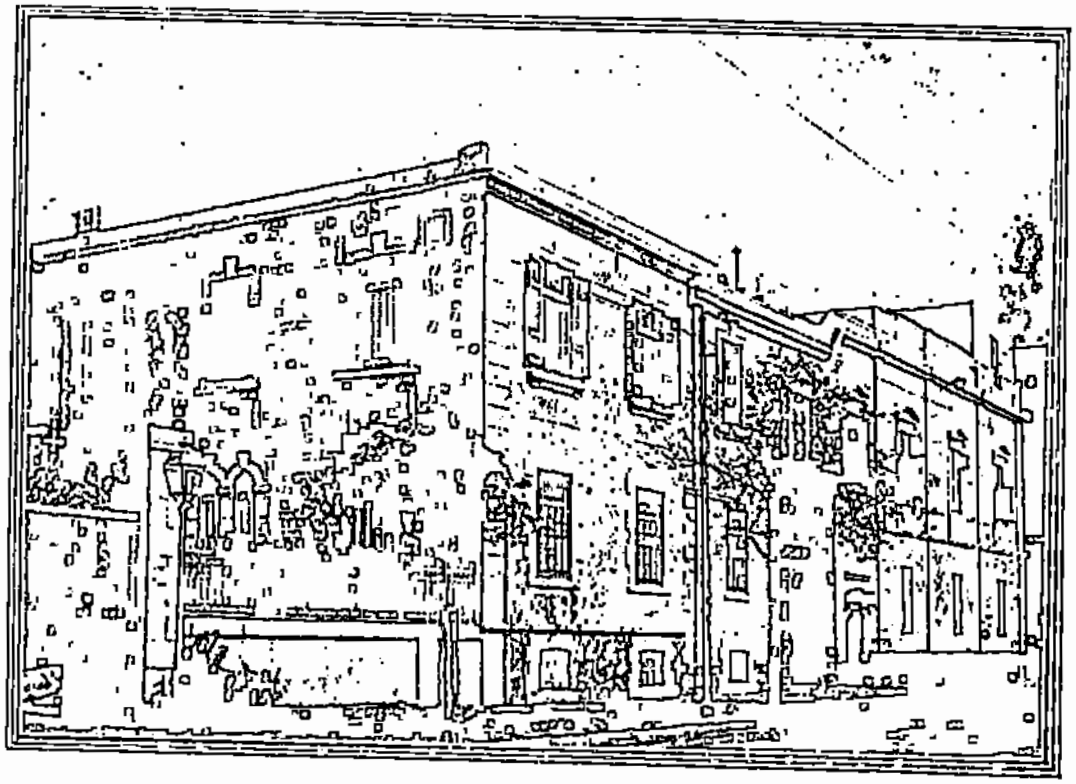

مدرسة القديس يوسف السريانيّة المارونيّة في القاهرة

ومنذ السنة المنصرمة انشأت ادارة المدرسة ﴿القسم الثانوي﴾ الذي مدته سنتان في آخرهما يؤدي الطلبة الامتحان لنوال شهادة وزارة المعارف العمومية (البكلوريا) وعدد طلبة هذا القسم ٣٣ طالباً . فيكون مجموع طلبة المدرسة الحاليين ٣٦٣ بينهم نحو ١٥ في المائة يتلقّون العلوم اما مجاناً واما بتخفيض ٥٠ في المئة من الاجور المقررة، وهؤلاء تقدّمهم جميعاً الطوائف الكاثوليكيّة الخيرية التي تؤدي عنهم الاجرة المخفّضة ، بشرط ان يكونوا ينتمون الى عائلات كاثوليكيّة . بيد انّه لا فرق في التعليم بين من يؤدون الاجور كاملة ومن يدفعونها مخفضة بل جميعهم يجلسون في قاعة واحدة ويتلقون العلوم على معلّم واحد

وفي المدرسة ﴿فرع داخلي﴾ يضم نحو ثلاثين تلميذاً ، ولو ان سعة المدرسة تسمح بقبول الداخليين لكانوا اكثر عدداً

وانا لننشر هنا جدولاً يبين للقارئ اجلى بيان نتيجة الامتحانات التي ادّاها تلاميذ المدرسة المارونية المنتمون امام لجنة وزارة المعارف العمومية مدة السنوات الست الاخيرة إظهاراً للسابقية التي حازتها مدرستنا بمعزل عن المدارس الاخرى التي من درجتها . وقد تكرمت بهذا الجدول ادارة المدرسة نقلاً عن سجلّاتها :

السنة	١٩٢٠	١٩٢١	١٩٢٢	١٩٢٣	١٩٢٤	١٩٢٥
المتحنون	٨	١١	٢٠	١٧	١٨	١٨
الناجحون	٧	٩	١٤	١١	١٤	١١

فتكون النسبة متراوحة بين ٨٥ــ٧٠ في المئة ، في حين ان النسبة المئوية للامتحانات العمومية تتراوح بين ٣٩و٢٨ في المئة

اما الطلبة الذين نالوا شهاداتهم ولم يطرقوا باب الاستخدام بل احبّوا اتمام دروسهم العالية فيقبلون في مدرسة العائلة المقدسة للآباء اليسوعيين اذا هم اختاروا القسم الافرنسي ، واما الذين يختارون القسم الانكليزي فيدخلون مدارس الحكومة المصرية ، وفي كلتا الجهتين يُعرف خرّيجو المدرسة المارونيّة بحسن اخلاقهم وآدابهم ، اذ هم قدوة حسنى باجتهادهم وحصولهم على اعلى الدرجات

اوقات التدريس

يتمرّض الداخليون من نومهم في منتصف الساعة السادسة صباحاً ، ويحضر الخارجيّون منذ الساعة السابعة فيسمعون القداس الالهي في الساعة السابعة والنصف. امّا النهار فقسم الى ساعات تدريس ورياضة بدنية وتنزه ، على ان الخارجيّين لا يبارحون المدرسة الّا متى آذنت الساعة السابعة مساء ، بحيث انهم يدرسون امثولاتهم ويكتبون تمارينهم وفروضهم في المدرسة تحت نظارة الاساتذة. الّا انهم يعطّون في منتصف النهار ساعةً ونصف الساعة لمناولة طعام الغداء في منازلهم اذا كانوا ليسوا ممن يتناولونهُ على مائدة المدرسة. وعليه فتكون مدة العمل من الساعة السابعة صباحاً الى السابعة مساء ، يتخلّلها انصاف ساعات تنزّه متفرّقة ؛ بهذا يصبح الطالب متمرناً على المحافظة على اوقاته ، محباً للعمل ، غير متضجّر من كثرته . وقد اشتهر خرّيجو مدرسة القديس يوسف المارونيّة بهذه الخلال الحميدة في المراكز التي شغلوها فكانوا قدوة لرصفائهم في الميل الى العمل واستحقوا ثناء رؤسائهم

الطقوس الكنسيّة واللغة السريانية

في المدرسة فرقة مؤلفة من التلامذة الذين لهم ميل الى الموسيقى واهلية لذلك. فيتمرّنون ما لايقلّ عن الساعة يوميًا على انشاد الالحان الكنائسيّة خدمة القداس وغيرها من الاحتفالات ، يقوم بتلقينهم هذا الفن حضرة رئيس المدرسة نفسه فهو من ذوي الخبرة في الطقوس والموسيقى الكنسيّة ، وقد وضع الحاناً لبعض المزامير الداودية ، التي تُرتّل في الاعياد الدارخة موقعةً ايقاعاً جميلًا يسترعي السمع ويهيب بالقلب الى الخشوع ، دون ان يخرج عمّا هو مألوف ويسمى نغماً كنائسيا . على ان حضرته في تمرينه فرقة الترتيل لم يُهمل الالحان الكنائسيّة القديمة المشهورة في مراكز الطائفة بل ينتخب منها ما حسُن ولذّ سماعهُ ، وحيثما وجد بعض الخلل اصلحهُ ورتّبه فيصبح النغم مطابقاً لضرورات الفنّ دون ان يبتعد عن بساطة وجمال الانغام الدينيّة والترتيبات الطقسيّة ؛ ولهذا فالحفلات الدينيّة التي تقام في كنيسة النيابة البطريركية المارونيّة انما هي على غاية من الرونق والنظام ، جامعة لابهة الطقوس الشرقيّة ، يشعر من يحضرها

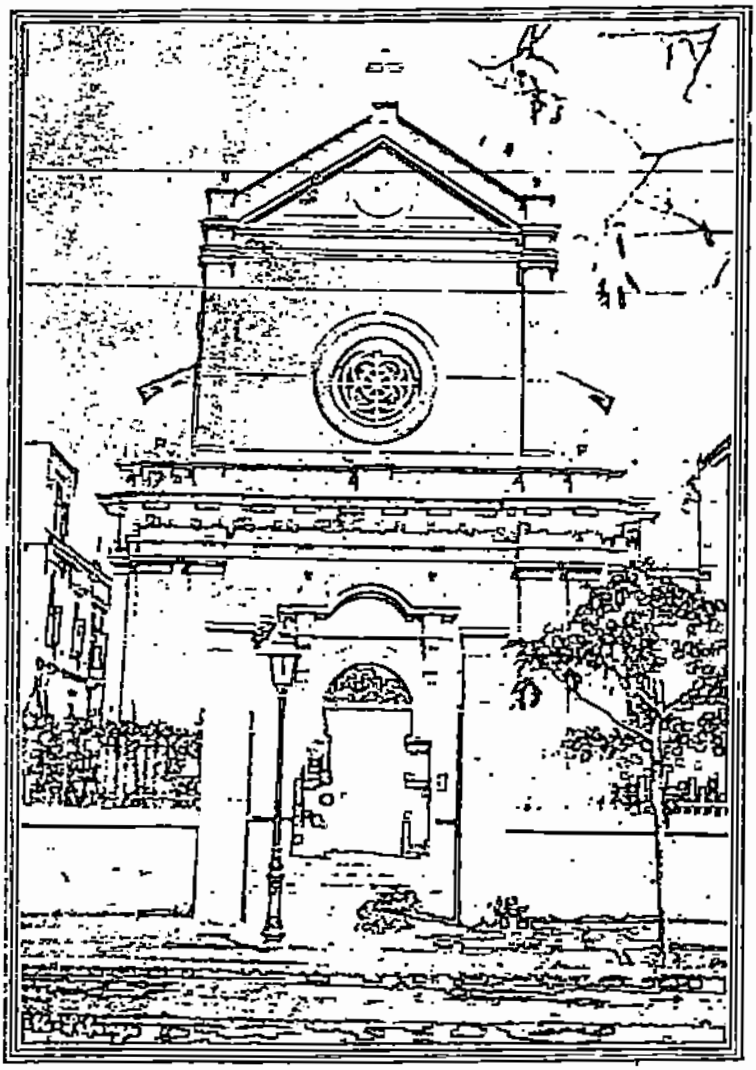

واجهة كنيسة العائلة المقدسة المارونية
في القاهرة

باخبات وخشوع عظيمين مع لذة السماع لانشاد فرقة الترتيل الموقع احسن ايقاع

وانا لتمنى في هذه المناسبة من صميم الفؤاد على ابناء طائفتنا في لبنان والمهجر ان يكون في مدارس الطائفة واديارها الجامعة بل وفي رعايا القرى العامرة اجواق ترتيل تقوم بخدمة الطقوس الكنائسية وتعمل على إعادتها الى رونقها ووحدتها ، مع المحافظة على ما في خدمة القداس من الاناشيد السريانية التي لا يحسن تعريبها ، بل هي جميلة في سريانيتها وتدل على قدم طقسنا ونقاسته . بيد ان من اللازم تهذيب لغة الاناشيد العربية البحتة حيث توجد ركاكة او ضعف مما لم يعد يصح السكوت عنه في عصرنا هذا (١ ونلاحظ على بعض الشمامسة المرتلين في لبناننا سرعتهم في تلاوة بعض الصلوات والمقالات من خدمة القداس بنوع انهم يتلون بضع كلمات من الاول وعبارة من الآخر مما لا يلتحم بعضه مع بعض ولا يحصل له معنى معقول ، فهذا مما يستدعي انتقاد الآخرين وهو اهمال لا يجوز . وفي هذا كفاية لأولي البصائر

ولم تهمل ادارة المدرسة اللغة السريانية العزيزة وهي لغة طقسنا ، وقد كادت تموت ، بل أنشئ في المدرسة فصل يضم عدداً غير قليل من الاحداث الوارنة والسريان يتلقنون اللغة السريانية بطريقة توصلهم الى ان يصيروا قادرين على الاشتراك في الصلوات الفرضية وقراءة الكتب الطقسية . وايم الحق انها لخدمة جلى تقدمها المدرسة الى الطائفة والطقس والوطن بتحبيبها هذه اللغة الى الناشئة ، عملاً باشارة غبطة السيد البطريرك الذي ما برح في كل منشور يذيعه يحث رؤساء المدارس على تعليم السريانية كيف لا ونحن نرى اهتمام الشعوب بكل ما هو وطني ولاسيما المحافظة على اللغة ؛ وها بنو اسرائيل مع تشتتهم تحت كل كوكب وتكلمهم بمختلف اللغات قد نهضوا نهضة واحدة لإحياء لغتهم العبرانية فنشروا فيها الجرائد والمجلات ووضعوا الروايات التمثيلية ، بل تطرف البعض منهم الى ان امسوا لا يتكلمون الا بالعبرانية . لعمري اننا مع كوننا نرأب بلغتنا العربية المحبوبة عن ان يحل محلها غيرها من اللغات ، فاننا نحرص شديد الحرص على لغة طقسنا من ان تندثر ، بل تمنى لو ظلت السريانية لغة

---

١) ان لحضرة رئيس مدرسة القديس يوسف كتاباً عنوانه «غذاء النفوس في الصلوات والطقوس» مهذب فيه لغة خدمة القداس والرياحات دون ان يبتعد عن الاصل المألوف وهو مأمور بتصديق وختم غبطة السيد البطريرك ، فيحسن استعماله منذ الآن

التخاطب بين الاكليريكيين في مدارسهم وبين الرهبان في ديرتهم ، ولكن هل كل ما يتمنّى المرء يدركه ؟ ! غير اننا نخشى ان يجيء يوم لا يعود يجد الكاهن شخصاً يخدم له قدّاسه او يقرأ فصلاً من الرسائل او مقالاً آخر طقسيًّا بسبب اهمال تعليم اللغة السريانيّة . امّا اولئك الكتبيّون الذين نشروا بعض الكتب الطقسيّة بالحرف العربي ابتغاء الكسب فقد ساعدوا على اهمال تعلّم السريانيّة وكان عملهم حجر عثرة في سبيل احياء اللغة ، سامحهم الله ! ! (١ غير انه لا يخفى على ذوي البصيرة انه من اللازب اللازم المحافظة على بقاء اللغة السريانيّة حفظاً لكيان المارونيّة واحياء لطقوسها الكنائسيّة

كنيسة العائلة المقدسة حذاء المدرسة

وفي الجهة الجنوبيّة من المدرسة تقوم كنيسة العائلة المقدسة ، وقد تبرع ببنائها ايضاً ذلك المذكور بالطيبات الكونت صعب واقف دار المدرسة ، طولها ثلثمئة وخمسة وعشرون متراً واتساعها احد عشر متراً ، وكان الفراغ من بنائها في اوائل نيسان سنة ١٩٠٩ فاحتُفل حينئذٍ بتكريسها وافتتاحها رسميًّا احتفالاً فخماً اشتركت به رؤساء الطوائف الكاثوليكيّة برئاسة الطيّب الاثر المطران دريان . والكنيسة مع صغرها جامعة في داخلها بين سلامة الذوق وجمال الفنون . وقد تولى نقش جدرانها بالالوان احد رجال الفن الايطاليين فرسمها برسوم القديسين والملائكة ونقشها نقشاً بسيطاً نظير ما في كنائس ايطالية ، فجاءت آية تبهج مجد الله ! وتقام فيها الحفلات الدينيّة على ما قدّمنا بكل فخامة وجلال . وفي المدرسة عدد غير قليل من الاكليريكيين كهنة وشمامسة فهم يقيمون صلاة الخورس الطقسيّة ما بين جوقين في مساء الاعياد الصارخة وفي آحاد الصوم واسبوع الآلام المقدس قياماً بالواجبات الطقسيّة واطاعةً لارادة غبطة السيد البطريرك الكلي الاحترام

وقد عُلّق حذاء الكنيسة جرس ليس بالصغير ولا بالكبير الخارق الّا انه يُدقّ على طريقة اجراس لبنان (المربعة) اللطيفة ، غير انه لا يمكن ان يكون ألوبةً للشبان المتهوّسين يتحنون بدقّه قواهم البدنية كما هو جارٍ في بعض جهات لبنان ولاسيما في

(١ في مقالة في الكتب الطقسية المارونية سأنشرها في فرصة اخرى

ايام الاعياد ، اذ يُقتصر في الاحتفال بالعيد ، اذا استثنينا اقامة القداس الالهي ، على قرع الجرس ، ولا غير ذلك !!

وانّهُ ليسرّنا في ختام هذا المقال ان نذكر ان ثلاثة من تلامذة مدرسة القديس يوسف المارونيّة قد اعتنقوا الدعوة الاكليريكيّة وواحد منهم هو اليوم يتمم الدروس المؤهلة لدرجة الكهنوت في كليّة القديس يوسف اليسوعيّة في بيروت . تلك هي ثمرة ما يغرسه رئيس المدرسة واساتذتها الافاضل في قلوب الناشئة من بذور الآداب والتعاليم المسيحيّة المؤدية الى الكمال . ويقيناً انه ليس باليسير ان ثلاثة شبان من مدرسة واحدة يهجرون العالم الى الكمال الاكليريكي في مدينة كالقاهرة حيث الغواية ناصبة شركها في كل سبل الشبيبة

هذا وانهُ ليعجبنا ما نراهُ في التلامذة القدماء من شواعر عرفان الجميل نحو اساتذتهم وعاطفة حبهم المكين للمدرسة التي انشأتهم وارضعتهم ألبان العلوم والآداب ، اذ مع كونهم قد انتُوا دروسهم في مدارس اخرى عليا ، وهم اليوم يشغلون مراكز مختلفة ، زاهم ما برحوا يفتخرون بانتمائهم الى مدرسة القديس يوسف المارونية مجاهرين بكونهم من خرّيجيها وقدماء تلامذتها

هذا ما منّ لنا نشره عن هذا المعهد الحديث من معاهد السريان في القطر المصري الذي وان صغيراً بكيانه فانه كبير بنتائجه ، وهو ، كما يتراءى للمتطلّع اللبيب ، تطبيق لمثل « حبة الخردل » الوارد في الانجيل الكريم . ومَن امعن النظر معتبراً ما اوردناه عن حالة هذه المدرسة تحقّق ان هنا اصبع الله

صورة بيورلدي

من احمد باشا الجزّار الى مشايخ الدروز

توطئة

لمّا اسند الباب العالي تدبير ولاية الشام الى احمد باشا الجزّار مع رتبة الوزارة ضغط المذكور على البلاد بما فرضهُ من الضرائب على الاهلين . فكان ذلك داعياً لتشبث بعض الدروز في لبنان لشقّ